كتاب الانصاف والتحري

في دفع الظلم والتجري

عن ابي العلاء المعري (١)

هو كتاب اهداه حضرة السيد محمد مرعي باشا الملاح من اعيان حلب وفضلائها الى مكتبة مجمعنا العلمي منذ اشهر فنشكر له غيرته على الادب والمعاهد العلمية ونصف الكتاب بما يعرفه لقراء المجلة الكرام وهو يقع في ٨٥ صفحة بقطع ربع عدي بخط حديث .

لقد رمي ابو العلاء المعري فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة بالزندقة لما كان مطبوعاً عليه من حرية الفكر وعدم التكتم باعتقاده فكان يجري على قلمه ولسانه ما يدور في خلده دون رياء او مواربة ولهذا اعتقد بعضهم انه كان ملحداً لما في اقواله احياناً من المجاهرة بمثل ذلك فانقسم الناس في وصفه الى فئتين فمنهم من خطأه والف في ذلك كتباً ورسائل ومنهم من انتصر له واظهر صحة مبادئه واعتقاده . ولقد الفت فيه كتب ونشرت مقالات رائعة في المجلات الاوربية والشرقية وترجمت اشعاره باللغات المختلفة وآخرها « الرباعيات » و « لزوم ما لا يلزم » وهي منتخبان من دواوينه ترجمهما بالانكليزية صديقنا واحد اعضاء مجمعنا الشرفيين الكاتب المشهور امين افندي الريحاني وطبعهما

وكتب بعضهم ترجمات للمعري وكان كاتب هذه المقالة الآن احد مترجميه في المجلد الخامس من مجلة المقتبس فاطال في ما وصلت اليه يد البحث واحتمله المقام في نشأته واعتقاده وشعره وما يتعلق بذلك وكان العلامة احمد باشا تيمور قد وضع له ترجمة روّيها وكاد يتمها ثم انقطع عنها وهو يوشك ان يتفق بالتقسيم مع ابن العديم في كتابه الموصوف ونشر شيئاً منها في « المؤيد » رداً على الاستاذ لطفي بك السيد ولعلي بك

« ١ » اتفقت هذه التسمية بالحرف في نسختنا ونسخة تيمور باشا . اما في تاريخ ابن الوردي فسماها « العدل والتحري الخ » وفي كشف الظنون « دفع الظلم والتجري » الخ

كمال العثماني مقالة في المعري نقلت الى العربية ، وممن كتب في الدفاع عن المعري احدهم في رسالة معروفة باسم « دفع المعرة عن شيخ المعرة » ذكرها كشف الظنون وغيره (١) ولم يذكر اسم مؤلفها . وكذلك الف آخرون مثل هذه الرسالة دفاعاً عن هذا الفيلسوف البصير الشهير .

ومن هؤلاء مؤلف تاريخ حلب الشيخ ابو حفص كمال الدين عمر بن ابي جرادة عبد العزيز المعروف بابن العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ ١٢٦١ م ، فانه الف الكتاب الذي عنونت به هذه المقالة وقد كسره على فصول رائعة في شؤون المعري هاكها بحسب ورودها فيه تتكلم عليها بابا بابا لتعريف جميع اجزاء الكتاب الموجودة

« ١ » المقدمة وفيها الداعي الى وضع كتابه هذا بعد وقوفه على جملة من مصنفات شيخ المعرة ابي العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المنتهي نسبه الى النعمان الساطع بن عدي من سلالة تيم اللات وهو مجتمع تنوخ المنحدر من قحطان وهو جد قبائل اليمن جميعها . وقد توفي المعري سنة ٤٤٩ هـ ١٠٥٨ م .

« ٢ » باب في ذكر نسبه وقد استرسل بعد اثبات نسبته الى ترجمة التنوخيين المعروفين بآل سليمان الى زمن المؤلف في اواسط القرن السابع للهجرة . ومن رأيه ان معرة النعمان ليست بمنسوبة الى النعمان بن عدي الملقب بالساطع بل الى النعمان بن بشير الانصاري والي حمص وقنسرين في ولاية معاوية وابنه يزيد فملك للنعمان بهـا ولد وجدد عمارتها فنسبت اليه وكانت تسمى اولاً ذات القصور الخ مما ملأ بضعاً وعشرين صفحة بقطع ربع

« ٣ » في ذكر مولد ابي العلاء ومنشإه وعماه وصفة خلقه — وهو باب حقق فيه اشياء كثيرة عن المعري مثل ولادته ومرضه وعماه وذكر وصفه كأنه يصوره نقلاً عن ابي محمد بن عبد الله بن الوليد بن عريب الايادي المعري الذي قال : دخلت على ابي العلاء وانا صبي مع عمي ابي طاهر نزوره فرأيته قاعداً على سجادة لبد وهو يسبح فدعا لي ومسح على رأسي وكأني انظر اليه الساعة والى عينيه احداهما

(١) وذكر ابن الوردي في تاريخه المطبوع في مصر « ١ : ٣٥٩ » الكتاب الموصوف وهذا الكتاب نقل عن ابن العديم قوله : « وقال فيه : انه اعتبر من ذم ابا —

تاورة[1] والاخرى غائرة جداً وهو مجدّر الوجه نحيف الجسم ... وروي عن ابن منقذ انه رأى أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ فوصفه بقوله: هو دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من اثر الجدري كأنه ينظر باحدى عينيه قليلاً

«٤» في ذكر اشتغاله بالعلم وذكر شيوخه الذين اخذ عنهم — فاجاد المؤلف في ذكر العلماء الذين تناول عنهم المعري في المعرة وحلب وبغداد التي دخلها سنة ٣٩٩ هـ ١٠٠٨ م. واقام فيها سنة وسبعة اشهر يتفقد مكاتبها وقال في كلام له عن هذه الرحلة: «واحلف ما سافرت استكثر من الشيوخ ولا اتكثّر بلقاء الرجال ولكن آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت انفس ما كان لم يسعف الزمان باقامتي فيه»

«٥» في ذكر من قرأ على ابي العلاء وروى عنه من العلماء والادباء والمحدثين من اهل المعرة وغيرهم من الغرباء من حلب وكفر طاب والاندلس وتبريز واصبهان وسروج والرقة وهكار وبغداد والمصيصة وأبهر ونيسابور والانبار من ائمة وعلماء وقضاة وادباء رواة وحفاظ ثقات رووا عنه وكتبوا واخذوا العلم واستفادوا وعظموا قدره ومعارفه

«٦» في ذكر شيء مما وقع الينا من حديث ابي العلاء المعري رحمه الله مسنداً — وفيه امثلة كثيرة تبسط فيها المؤلف

«٧» في ذكر كتّاب المعري الذين كانوا يكتبون له ما ينشئه من الرثايد[2] والنظم والتصنيف والاملاء وكان عنده اربعة كتاب في جرايته وجارية يكتبون عنه مايكتب الى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف وكتب له جماعة من المعرة اخصهم انسباؤه ومنهم ابن اخيه ابو محمد عبد الله بن محمد بن عبدالله بن سليمان فانه كان ملازماً لخدمته ويكتب له تصانيفه ويكتب عنه الاجازة والسماع لمن يسمع

— العلماء ومن مدحه فوجد كل من ذمه لم يره ولا صحبه ... ووجد من لقيه هو المادح له ...» ثم قال في وصف الكتابين: «وفي هذين الكتابين فصول من نوادر ذكائه واجابة دعائه والاعتذار عن طعن اعدائه» الى آخر قوله

(١) كذا في الاصل ولعلها قاورة من قور الرجل اي عور

(٢) كذا في الاصل ولعلها «الرثاء»

منه ويستجيزه وكتب تصانيفه بخطه حتى يقع بخطه من المصنَّف الواحد نسختان واكثر وكان برّاً بعمه مشفقاً عليه فقال فيه المعري شعراً لما كان يمرّضه :

اعبد الله ما اسدى جميلاً ... نظير جميل فعلك غير امي
سقتني درّها ودعت وباتت ... تعوّذني وتقرأ او تسمي
همممتَ بان تجنبني الرزايا ... فرمت وقايتي من كل همّ
كأن الله يلهمك اختياري ... فتفعله ولم يخطر بوهمي
حمدتك في الحياة اتمَّ حمدٍ ... وايامي ذممت اتمَّ ذمّ
اجدّك ما تركت وانت قاض ... تعهد مقعد اعمى اصمّ
جزاك الباريُ ابن اخ كريماً ... أبرَّ بعجز شيخ برّ عمّ

وقال فيه لما مرَّضه بمرضه الاخير :

وقاضٍ لا ينام الليل عني ... وطول نهاره بين الخصوم
يكون ابرَّ بي من فرخ نسرٍ ... بوالده والطف من حميم
سأنشر شكره في يوم حشرٍ ... أجلْ وعلى الصراط المستقيم

ومنهم ابن اخيه اخو هذا وهو ابو الحسن علي بن محمد سمع على عمه ابي العلاء جميع امالية ونسخها بخطه . ومنهم ابو الحسن علي بن عبيد الله بن ابي هاشم المعري متولي اوقاف الجامع بالمعرة لزم الشيخ ابا العلاء وكتب كتبه باسرها وكتب من المصنَّف الواحد عدة نسخ وكان خطه مورقاً حسن الضبط والاتقان حتى قال فيه المعري : « لزمت مسكني منذ سنة اربع مائة واجتهدت ان اتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلاَّ من اضطر الى غير ذلك فامليت اشياء وتولى نسخها الشيخ ابو الحسن علي بن عبيد الله ابن ابي هاشم احسن الله معونته فالزمني بذلك حقوقاً جمة وايادي بيضاء لانه افنى فيَّ زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمنه والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والارزاء(اه)» وكان والده ابو الفتح محمد بن علي بن عبيد الله بن ابي هاشم من كتاب المعري ايضاً فوضع له الشيخ ابو العلاء كتاباً لقبه (المختصر الفتحي) وكتاباً يعرف (بعون الجمل في شرح شيء من كتاب الجمل) . ومن كتّابه جماعة من بني هاشم وقد وقف ابن العديم على رسالة لابي العلاء تعرف برسالة (الضبعين) كتبها الى معز الدولة علي بن صالح يشكو

اليه رجلين احدهما الشريف بن الحبرة الحلبي كانا يؤلبان عليه وينسبانه الى الكفر والالحاد وقد حرفا بيتاً من لزوم ما لا يلزم عن موضعه ليثبتا عليه الكفر بذلك قال فيها : وفي حلب حماها الله نسخ من هذا الكتاب بخطوط قوم ثقات يعرفون ببني ابي هاشم .... جرت عادتهم ان ينسخوا ما امليه . ومن كتابه ابراهيم بن علي بن ابراهيم الخطيب وهو كاتب حسن صحيح الخط متقن في الضبط كتب معظم كتب المعري وتصانيفه بخطه وكتب عنه في السماع عليه والاجازة منه وقرأ عليه .

(٨) في ذكر تصانيفه ومجموعاته وتآليفه واشعاره المدونة ورسائله المفتنة = يقع هذا الفصل في نحو احدى عشرة صفحة بقطع الكتاب ونود نشره بحرفه في مجلتنا لما فيه من التحقيق والتدقيق بقلم مؤلف كبير مثل ابن العديم و بنشره تعريف كامل له وان كان ياقوت الحموي الرومي قد اطال في وصف مؤلفاته عند ما ترجمه في اجزاء الاول من كتابه (معجم الادباء) فابن العديم لم يشق له غبار في تقصيه وتبسطه .

(٩) في ذكر رحلته الى بغداد وعوده الى معرة النعمان وانقطاعه في منزله عن الناس وتسمية نفسه رهن المحبسين = عدد المؤلف ما حدث له في هذه الرحلة وذكر له رسالة وابياتاً كتبها من بغداد الى اهله في المعرة منها :

أإخواننا بين الفرات وجلق ... يد الله لا اخبرتكم بمحال
انبئكم اني على العهد سالم ... ومجهي للابتذال بسؤال
واني تيممت العراق لغير ما ... تيممه غيلان عند بلال

واشار الى انه وصلها يوم موت الشريف ابي احمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب والد الشريفين الرضي والمرتضى فنظم له مرثية بليغة فائية الروي عرفت الناس به .

وطلب هناك ان تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد فأدخل اليها وجعل لا يُقرأ عليه كتاب الا حفظه .

واورد هنا فصائد قيلت في استقدام ابي العلاء الى بلاده لبعض انسبائه .

(١٠) في ذكر ذكاء ابي العلاء وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته وتوقد خاطره و بصيرته = فاسترسل هنا الى ما امتاز به المعري من الحفظ حتى ان احدهم سأله عن

ذلك فاجابه بقوله : « ما سمعت شيئًا الا وحفظته وما حفظت شيئـاً فنسيته » . واورد من دقة حفظه وروايته ما تلي امامه بالاذربيجـانية والفارسية باعادته بالحرف الواحد وهو لا يعرف شيئًا من اللغتين . وقال ان البغداديين ارادوا امتحان حافظته فاحضروا دستور الخراج الذي في الديوان وجعلوا يوردون ذلك عليه مياومة وهو يستمع الى ان فرغوا من ذلك فابتدأ ابو العلاء وسرد عليهم كل ما اوردوا عليه . وكذلك فعل ابن منقذ بخزانة الكتب في كفرطاب بالقرب من المعرة او بحلب التي كان يخلف اليهـا ابو العلاء فقرأ عليه نحو كراسة واستعاده اياه فلم يخطئ بحرف وذكر المؤلف هنا شيئًا مفيداً عن مكتبة حلب فقال : كان ابو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ في حلب وله بها دار ومنزل وكان بها خزانة كتب في الشرقية التي بجامع حلب في موضع خزانة الكتب اليوم « اي بزمن ابن العديم » واتفقت فتنة في بعض ايام عاشوراء بين اهل السنة والشيعة ونهبت خزانة الكتب . وكان ذلك في زمن ابي العلاء ولم يبق في خزانة الكتب الا القليل وجدد الكتب فيها بعد ذلك الوزير ابو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخر بها وقد ذكر ابو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي هذه الخزانة في قصيدته التائية التي كتبها من القسطنطينية[1] يداعب احد اصدقائه بها قال فيها :

ابلغ ابا حسن السلام وقل له هذا الجفاء عداوة الشيعيَّه
فلاطرفن بما صنعت مكابراً وابث مالافيت منك شكيَّه
ولاجلسنك للقضية بيننا في يوم عاشوراء بالشرقيه
حتى اثير عليك فيهـا فتنة تنسيك يوم « خزانة الصوفيه »

ومن تحقيقات ابن العديم قوله : وقد ذكر بعض المصنفين ان ابا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد ولم يكن بطرابلس دار علم في ايام ابي العلاء وانما جدَّد دار العلم بها القاضي جلال الملك ابو الحسن علي بن محمد بن احمد بن عمار في سنة اثنتين وسبعين واربعمائة . وكان ابو العلاء قد مات قبل جلال الملك في سنة تسع واربعين واربع مائة . ووقف ابن عمار بها من

(١) في مكتبتي نسخة نفيسة من ديوانه المخطوط القديم

تصانيف ابي العلاء الصاهل والشاحج والسجع السلطاني والفصول والغايات والسادن واقليد الغايات ورسالة الاغريض

قرأت في كتاب تتمة اليتيمة[1] لابي منصور الثعالبي وذكر ابا العلاء المعري فقال: وكان حدثني ابو الحسن المدائني المصيصي الشاعر وهو ممن لقيته قديمًا وحدثنا في مدة ثلاثين سنة قال: لقيت بمعرة النعمان عجبًا من العجب رأيت اعمى شاعرًا ظريفًا يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل كل فن من الجد والهزل يكنى ابا العلاء وسمعته يقول: انا احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر وقد صنع لي واحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء. وهذا ان صحّ عن ابي العلاء فقد كان ذلك في حال حداثته فان ابا العلاء رحمه الله كان بعيدًا من اللعب والهزل.

كان ابو العلاء متوقد الخاطر على غاية من الذكاء من صغره وتحدث الناس بذلك وهو اذ ذاك صبي يلعب مع الصبيان فكان الناس يأتون اليه ليشاهدوا منه ذلك فخرج جماعة من اهل حلب الى ناحية معرة النعمان وقصدوا ان يشاهدوا ابا العلاء وينظروا مايحكى عنه من الفطنة والذكاء فوصلوا الى المعرة وسألوا عنه فقيل لهم هو يلعب مع الصبيان فجاؤوا اليه وسلموا عليه فرد عليهم السلام فقيل له ان هؤلاء جماعة من اكابر حلب جاؤوا لينظروك ويمتحنوك فقال لهم هل لكم (في المقافاة)[2] بالشعر فقالوا: نعم. فجعل كل واحد منهم ينشد بيتًا وهو ينشده على قافيته حتى فرغ محفوظهم باجمعهم وقهرهم فقال لهم: اعجزتم ان يعمل كل واحد منكم بيتًا عند الحاجة اليه على القافية التي يريد. فقالوا له: فافعل انت ذلك. قال فجعل كلما انشده واحد منهم بيتًا اجابه من نظمه على

(١) تتمة اليتيمة للثعالبي من الكتب التي ظن كثيرون انها مفقودة ولكن صديقي المحاثة المحقق المسيو جرجس منش من علماء حلب عثر على نسخة نفيسة منها ونشر في بعض المجلات امثلة منها وهو ساع بطبعها كما اخبرني في الصيف الماضي وكان قد زارني في زحلة ورغبته ملحًا عليه بطبعها وهكذا طالب العلامة احمد باشا تيمور لما اخبرته بذلك.

(٢) المقافاه فن يسميه الناس في عهدنا «مذاكرة الانفاس» وهي ان يتذاكر ثنان او اكثر بان ينشد كل منهم بيت شعر فيأخذ الآخر رويه وينشد عليه بيتًا اوله امثل ذلك الروي هكذا يفعل الآخر الى ان يعيي احدهما الانشاد فينقطع ويغالب.

قافيته حتى قطعهم كلهم فعجبوا منه وانصرفوا .

واورد ابن العديم هنا اخباراً كثيرة عن المعري تدل على قصده من هذا الفصل الذي عقده في ذكائه ومن اغرب ذلك ان بعض امراء حلب قيل له : ان اللغة التي ينقلها ابو العلاء انما هي من الجمهرة وعنده من الجمهرة نسخة ليس في الدنيا مثلها واشاروا عليه بطلبها منه قصداً لاذاه فسيّر امير حلب رسولاً الى ابي العلاء يطلبها منه . فأجابه بالسمع والطاعة وقال : تقيم عندنا اياماً حتى تقضي شغلك ثم امر من يقرأ عليه كتاب الجمهرة فقرئت عليه حتى فرغوا من قراءتها ثم دفعها الى الرسول وقال له : ماقصدت بتعويقك الا ان اعيدها على خاطري خوفاً من ان يكون قد شذّ منها شيء عن خاطري فعاد الرسول واخبر امير حلب بذلك فقال : من يكون هذا حاله لايجوز ان يؤخذ منه هذا الكتاب وامر برده اليه .

ومن غريب ما اورده عن قوة محفوظه ان رجلاً من طلبة العلم باليمن وقع اليه كتاب في اللغة سقط اوله واعجبه جمعه وترتيبه فبعد البحث والتنقيب عما يصحح به خرم كتابه ارشد الى ابي العلاء فحمل اليه الكتاب وهو مقطوع الاول . فقال له : ابو العلاء اقرأ منه شيئاً فقرأه عليه . فعرّفه بالكتاب وبمؤلفه واملى عليه ماينقصه فتم الكتاب وانفصل الرجل الى اليمن واخبر اهل العلم بذلك . وقيل ان الكتاب هو « ديوان الادب للفارابي » والله اعلم .

وقيل انه املى من ديوانه « لزوم مالايلزم » في ليلة واحدة نحو الفي بيت كان يسكت زماناً ثم يملي نحو خمسمائة بيت ثم يعود الى الفكرة والعمل الى ان كملت العدة المذكورة .

(١٠) في ذكر حرمته عند الملوك والخلفاء والامراء والوزراء = وهو فصل لطيف اطال به ابن العديم على عادته في الاستقراء وحسن الوصف .

(١١) في ذكر اختلاءه بالعلم والادب ومعرفته باللغة ولسان العرب = حتى قال ابو زكريا التبريزي : « ما اعرف ان العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري » وهي كافية في تعريف قدره اللغوي .

(١٢) في ذكر كره ابي العلاء وجوده على قلة ماله وزارة موجوده = فصل فيه حوادثه المتعلقة بهذا البحث .

(١٣) في ذكر قناعة نفسه وشرفها وعفتها عن اخذ صلات الناس وظلفها = ذكر من هذا الفصل نحو صفحة ونصف وانقطع كلام المؤلف هنا فجأة مما يدل اما على خرم نسخة الكتاب الاصلية اوانقطاع المؤلف عن تتمته لاسباب مجهولة ولقد فاوضت صديقي احمد باشا تيمور بشأن هذه النسخة فأجابني رعاه الله بما يدل على انه وقعت له نسخة من الكتاب مخرومة من هذا الموضع وربما جرى ذلك بيد احد اعدائه .

ولم نسمع بنسخة كاملة في ما بحثنا عنه ولعلنا لانعدم من القراء الكرام التنقيب عن نسخة تامة والافادة عنها لنصحح خرم نسختنا ونصف الباقي منها .

(الخلاصة)

ان الكتاب خرم قبل ان يدخل مؤلفه في بحث تبرئة المعري التي هي المقصود من الكلام ولعلّ الذين يرمون المعري بالكفر مزقوا اوراقه ليؤيدوا رأيهم في تكفيره[1] والله اعلم

عيسى اسكندر المعلوف

(١) ومما استدللت منه على وجود نسخة كاملة غير مخرومة الآخر أن طاش كبري زاده نقل عن هذا الكتاب شيئًا من اواخره في البحث عن المعري وتكفيره وهذا نص ماجاء في نسخة الهند المطبوعة آخرا (١٩٢:١) من (مفتاح السعادة ومصباح السيادة): قال ابن العديم في كتابه (دفع التجري على ابي العلاء المعري) : كان يرميه اهل الحسد بالتعطيل ويحملون على لسانه الاشعار ويضمنونها اقاويل الملاحدة قصداً لهلاكه وقد نقل عنه اشعاراً تتضمن صحة عقيدته وكذب ماينسب اليه (اه)

وهذه اشارة صريحة الى وجود باب البحث عن اشعاره وما فيها من الوهم بالذهاب الى التعطيل ونحوه وتبرئة المعري من هذه الوصمة

ومن اغرب مارأيت ان ياقوت في معجم الادباء لم يذكر (هذا الكتاب) بين مؤلفات ابن العديم الذي ترجمه في الجزء السادس ولا اشار اليه في ترجمة المعري في الجزء الاول مع احتفاله بالمعري .